مجلّة العربيّة المجلد (08) العدد(02)
(EISSN:2602-5434) -(ISSN:2437-0231) (ص44-59)

الشعرية والأسلوبية والبلاغة،
الحدود والتقاطعات

**poetic, stylistic, and rhetoric,
Borders and intersections**

ط/ د: صوضان محمد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ابن زهر/ أكادير- المغرب

تاريخ الإرسال:2021/10/10 تاريخ القَبول: 2022/01/07 تاريخ النّشر:2022/01/30

ملخّص:

يهدف هذا المقال إلى الوقوف عند حدود وتقاطعات ثلاثة حقول معرفية؛ البلاغة والأسلوبية والشعرية، من خلال التركيز على الموضوع وسياق النشأة والتبلور وآليات العمل وغايته. وينطلق من فرضية أن هذه المجالات المعرفية تشترك في الكثير من الاهتمامات وأدوات العمل، وتقصد إلى تعرف بنية واشتغال الخطابات. فضلا عن نشأتها وتطورها عرف نوعا من التداخل والمراجعة انطلاقا من تأثيراتها المتبادلة.

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية، الشعرية، البلاغة، الحدود، التقاطعات

Abstract :

This article seeks to identify the boundaries and intersections of three fields of knowledge; Rhetoric, stylistic and poetic. Focusing on its subject, the context of its emergence and development in the Western and Arab contexts, and the mechanisms and purpose of work. It stems from the premise that these areas of knowledge share a lot of interests and work tools, and it is intended to know the structure and functioning of discourses. As well as its inception and development, it has known a kind of overlap and revision based on its mutual effects.

Keywords:stylistics, poetics, rhetoric, borders, intersections

مقدّمة:

ينطلق هذا المقال من حقيقة أن الثلاثي المفهومي- الشعرية- البلاغة، الأسلوبية- يهتم بالآثار والأعمال الأدبية عبر الاستفادة مما أصلته وأسسته اللسانيات الحديثة، إنها- المفاهيم الثلاثة- بعبارة أخرى تندرج ضمن ما يسمى باللسانيات الكلامية -إن صح التعبير، إذ نشأت أساسا لدراسة الكلام الأدبي. ويعتبر هذا الأساس أحد تقاطعاتها، وإن اختلفت زاوية النظر إلى الكلام من مفهوم لآخر؛ بين واحد يسعى لتشكيل قوانين للآثار الأدبية عبر استقراء خصائصها، وآخر غايته وصفية صرفة وعى بمشكلات النصوص فربط قوانينها ببنيتها الخاصة لا تتعداها إلى خارجها.

إن هذه المفاهيم/ الحقول المعرفية قد سعت في إطار من التدافع والتجاوز أحيانا، ومن الانسجام في أحايين أخرى إلى الاهتمام بأنواع الخطابات الكلامية والأدبية بوجه خاص، ما حدا ببعضها إلى إقصاء البعض وتصحيح مساراته. غير أنه يمكن القول إن أقدمها اعتمد وسيلة لدراسة الآثار الأدبية كان هو البلاغة التي انفتحت على مختلف النصوص، لتلتحق بذلك الشعرية والأسلوبية، فإذا سعت الأولى إلى التجريد باستخلاص السمات البارزة للنصوص بغض النظر عن تحققاتها في الأعمال الأدبية؛ فإن الثانية كان هدفها تدارك ما قصرت عنه البلاغة بالاستفادة من مناهج اللسانيات الحديثة دون نتائجها.

لهذه التقاطعات والتمايزات بين هذه الحقول المعرفية المتقاربة في الغاية ارتأينا أن تكون هذه الوريقات في تعيين المشترك بينها، وزوايا الاختلاف، وذلك بالانطلاق من العناصر التالية:

- موضوع الاشتغال
- ظروف التكون والتبلور في السياقين العربي والغربي
- بين المعيارية والوصفية
- خاتمة

1. موضوع الاشتغال

إذا كانت اللسانيات بمختلف مدارسها تتخذ من اللغات الطبيعية المتكلمة موضوعا لدراساتها باعتماد مناهج وصفية غايتها الاستقراء والتتبع والملاحظة واستخلاص القوانين الكلية، فإن التواصل الإنساني في شقه اللغوي لا يرتكز فقط على اللغة باعتبارها مشتركا اجتماعيا ثابتا يكرر نفس أنظمة التركيب والدلالة؛ إذ نجد مادة لغوية مهمة لم تستطع اللسانيات الاقتراب منها، كونها لا تتطابق ومادتها الأصلية، فضلا عن كون مشاكلها من التعقيد والهلامية لدرجة قصرت عنه الدراسة اللسانية، أعني بذلك النصوص الأدبية باعتبارها لغة تقوم على علاقة تضاد وتشابه في الآن نفسه مع اللغة ذات الطبيعة التواصلية بالدرجة الأولى.

إذا كانت اللغة في شقها الأول- أنظمة اجتماعية مؤسسية/ ملكة لغوية تبني لدى الإنسان في مراحل عمره كلها- قد اهتم بها النحو التقليدي ثم المقارن أو فقه اللغة، ثم اللسانيات الحديثة بعد ذلك؛ فإن النص باعتباره تحققا لتلك الملكة، وأداء وإنجازا وممارسة لأنظمة اللغة على درجة عليا من التشابك والتعقيد والالتباس ما جعل صعوباته تترى. وقد قامت العديد من الحقول المعرفية بغية درسه، لكن من زوايا مختلفة، بعضها تأثر بالدراسات النحوية المعيارية فحاول استقراء مجموغة من الشواهد الرفيعة واستخلص أبعادها الجمالية وأحالها قوانين ومعايير لازمة السلوك لكل من يروم الأدب الرفيع، وأخرى اهتمت بجل أنواع الخطابات فاستقرت أساليبها وكيفية تأديتها لوظيفتها الإقناعية والإخبارية فأحالتها هي الأخرى مبادئ تدرس وتسلك. والبعض الآخر فطن إلى أن هذا المسلك وهاته السبيل كلما أمعنت في المعيرة إلا واشتد طلب الحرية وقوي التمرد عليها، فصارت إلى الاكتفاء بالوصف والتتبع علها تصل إلى بعض المشترك؛ لا لاتخاذه معيارا ملزما؛ فيما البعض منها عمل على تأويل العبارة وتبرير الأثر الجمالي لكل خرق وانزياح فاختار الوظيفة التأويلية على رسم المسالك وتقنين الوسائل المساعدة على إنتاج خطابات أدبية.

إذا كانت البلاغة بالمفهومين الغربي والعربي على تفاوت في ذلك، في خضم تطورها التاريخي قد عرفت تحولات عدة، جعلها تأرجح بين توجهين بارزين؛ الأول يعدها دراسة في الأسلوب، وبالأخص الوجوه البلاغية، وهو البارز في الثقافة العربية، وفي الثقافة الغربية لحظة انحسار البلاغة وموتها، مما يقربها من حقل الأسلوبية والشعرية، وهي ما اصطلح عليه جيرار جنيت بالبلاغة المختزلة، أو بلاغة الوجوه. والثاني يعدها فنا للحجاج، كما يشهد على ذلك كل من مصنف "بيرلمان" و"تيتكا"، الذي استعاد التصور الأرسطي تجديدا وإبداعا "إن ما نبحث عنه قد عالجته مادة قديمة ثم نسيانها واحتقارها، أقصد البلاغة؛ الفن القديم للإقناع والاقتناع"[1]، فإنها في الغالب الأعم محصورة في كونها وجوها مقننة ومقعدة، تقتصر وظيفتها على وصف الكلمة وفي أحسن الأحوال الجملة، إلى مستوى يحررها من هذا الجمود والضيق، ولم ترتفع إلى اعتماد مقولات نظرية عن أي خطاب، ما يسمو بها إلى رحاب الخطاب والنص؛ حيث تستحيل منهجا في مقاربة الخطابات والأنواع.

إنها بذلك -وخاصة العربية ثم الغربية في لحظة جمودها- تستكين إلى "النزعة الجزئية المسيطرة عليها، مما يجعلها تقف عند حدود الجملة أو ما في مقامها[2]". وترتكز على تتبع الظواهر الفنية في النص، واستقرائها ابتداء، ثم اتخاذها مبادئ على ضوئها تنتج النصوص وتتلقى، أي أن معايير الجمال تقولب في مقولات أثبتت فعاليتها الأسلوبية والفنية، فشكلت الذوق من خلال تكرارها وانتظار نفس الأثر على المتلقي. أو بعبارة أخرى إن البلاغة تسعى إلى تقنين الإبداع عبر رسم المسالك لنمط التعامل الكلامي مع اللغة. وهذا ما ادعته البلاغتان؛ العربية والغربية القديمة من خلال سعي الأولى إلى صياغة مبادئ مستقاة من الأدب الرفيع وتلقينها للمبدع لينتج على منوالها، وللمتلقي ليحلل/ يتلقى الإنتاج وفقها. وسعي الثانية إلى تلقين (السفسطائيون خاصة) مقولات وسبلا بلاغية أثبتت نجاعتها، يتمكنون خلالها من استمالة المتلقي/ الجمهور والتحكم فيهم.

صحيح أن البلاغة الغربية الجديدة حاولت الخروج من نمط التعليمية لتنفتح على خطابات متنوعة، ولتستفيد من المنطق والتداوليات والفلسفة والقانون، فصارت إلى البحث عن إدراك الكيفية التي يؤدي بها الكلام الغاية منه وبيانها[3]. عكس العربية التي فطن

بعض المجددين فيها إلى ضرورة دراسة بعض جوانبها لتتلاءم والغربية، مع محاولة إحياء بلاغة ابن وهب والجاحظ باعتبارها بلاغة خطابية إقناعية وليست فقط جمالية.

إن قصور البلاغة القديمة في تناولها لجل الخطابات ومعياريتها هي ما جعل الغربيين يحاولون تجديدها عبر العودة بها إلى وظيفتها الأساس ممثلة في الإقناع، بدل الإمتاع فقط، وهو نفس ما دعا إلى ظهور كل من الشعرية ابتداء والأسلوبية تاليا، ما جعل البلاغة لم تنفرد وحدها بدراسة الخطابات أو البنى الكبرى التي تتجاوز الجملة. ما جعل البعض يعدها مجرد تطوير للبلاغة لا أقل ولا أكثر، يقول تودروف: تتميز البلاغة بكونها أقرب العلوم إلى الشعرية لأنها تشتغل عل الخطاب"[4]، ويقول جنيت: "إن الشعرية ليست في أحد معانيها إلا بلاغة جديدة"[5]

ظهرت الشعرية أول ما ظهرت كعلم "يحاول وضع نظرية عامة ومجردة ومحايثة للأدب بوصفه فنا لفظيا، إنها تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية، فهي إذن تشخيص القوانين الأدبية في أي خطاب لغوي"[6]. والشعرية لا تتخذ اللغة العامة موضوعا لها، بل تقتصر على شكل من أشكالها الخاصة.

تعددت مفاهيم الشعرية، واتسعت آفاق تطبيقاتها تطويرا للمصطلح في علاقاته بفنون الإبداع من جهة، وبمقاربته عبر وسيط فني محدد من جهة أخرى، فإذا كانت الشعرية قد بدأت مع الشعر فإنها لم تستقر عنده فاتحة علاقاتها مع غيره من الأجناس الأدبية. ويرى كثير من الشعريين أن إعطاء تعريف واحد وقار للشعرية أمر صعب؛ وذلك لأن منافذها متعددة واشتغالاتها مختلفة وامتداداتها واسعة. ومعلوم أن تودروف قد حاول حصر مفهوم الشعري في المعاني الآتية:

1. هو كل نظرية داخلية للأدب
2. هو مجموع الإمكانات الأدبية (التيماتيكية- التركيبية- الأسلوبية-..) التي يتبناها كاتب ما.
3. هو كل إحالة على الترميزات المعيارية الإجبارية لمدرسة ما"[7]

إن الشعرية حسب هذه الاقتراحات الثلاثة، وخاصة الاقتراح الأول، تعنى بالكشف عن القوانين الجمالية التي تسمح بالقبض على وحدة النصوص الإبداعية وتنوعها في الوقت نفسه من خلال تحديد قواسم مشتركة بين تلك القوانين. وهي لا تتوخى التأويل الصحيح للآثار الأدبية كعلم للأدب، مع أنها تملك طموحا علميا في التناول، فليس علم ما هو الواقعة الأدبية، ولكن القوانين التي تميزه. إنها لا تتأسس على النصوص الأدبية بوصفها عينات فردية، و"لا تهتم بالوقائع المنجزة ولكن بالبنى المجردة للأدب"8.

وقد حدد تودروف موضوع الشعرية في إطار التحول الذي طال موضوع النظرية الأدبية، فحصره في الخطاب الأدبي، أي مجموع البنيات اللفظية التي تعمل في كل عمل أدبي.. وقال بأنها لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل.. وتبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته، فالشعرية إذن مقاربة للأدب مجردة وباطنية في الآن نفسه.. مؤكدا على أن موضوعها ليس مجموع الوقائع الاختبارية (الأعمال الأدبية) بل بنية مجردة هي الأدب[9].

ويرى رومان ياكبسون أن ما يجعل الأدب أدبا ليس هو الأدب وإنما الأدبية، وليس الشعر وإنما هو الوظيفة الشعرية. وليس موضوع علم الأدب، عند ياكبسون، هو الأدب، بل هو الأدبية، أي ما يجعل من عمل عملا أدبيا، ويضعف من مبدإ السببية المباشرة بين ظروف الكاتب وإنتاجه الأدبي، مما يسمح بتفسير دوافع الإنتاج لا الإنتاج ذاته"[10]

معنى هذا أن موضوع الشعرية ليس الأعمال المحققة، وإنما الأعمال المجردة. فالشعرية بهذه التحديدات لا تقف عند ما هو منجز وظاهر في البناء اللغوي للنص الأدبي، وإنما تتجاوزه إلى سبر ما هو خفي وضمني. "[11] "وكل نظرية أدبية تسعى إلى دراسة النص الفني دراسة داخلية، بعيدا عن المؤثرات الخارجية للنص، وفق تصور منهجي واضح ومفاهيم إجرائية محددة ومضبوطة." [12].

واهي وإن ارتبطت بالشعر ابتداء إلا أنها انطلقت إلى آفاق جديدة فانفتحت على خطابات أدبية متعددة ليس بغاية حصر إمكانيتها والإيصاء بها والإلزام لتعتمد، بل غايتها حصر هذه المكونات والإمكانيات، وتعرف القوانين التي تحكم إنتاج النصوص، ويتحدد

ذلك حسب ياكبسون من خلال" إسقاط مبدأ التماثل الخاص بمحور الاختيار على محور التأليف".

أما الأسلوبية فهي درس، موضوعه دراسة الأساليب، وميزات التعبير اللغوية. فهي الشبيه القريب من البلاغة، ميزتها الأساسية دراسة التعابير الفنية وتأويلها، ولكن ليس كدراسة البلاغة لها، إذ أن هذه تسحب ما توصلت له من قوانين على بقية النصوص المشابهة خاصة؛ فيما الأسلوبية تربط ما اكتشفته بالتجربة النصية وتعتبره قانونا داخليا، باعتماد الانزياح آنا والخرق آنا أخر. وقد اعتبرها البعض مجرد حقل غير محدد الموضوع تتوزع مباحثها مجالات معرفية متنوعة، يقول سعيد علوش:" وتعتبر الأسلوبية، التي لم تتوصل إلى توضيح واضح لموضوعها درسا مشلولا، حيث يتوزع حقل الدراسة بين اللسانيات التعبيرية/ البلاغة/ السيميائيات السردية/ الدلالة"[13].إنها باستفادتها من هاته المجالات تسعى إلى أن تكون نظرية تأويلية بالدرجة الأولى، وهي وإن قدمت لها العديد من الانتقادات الأخرى وخاصة بعض تياراتها التي اعتمدت الانزياح والخرق كإجراءين لانطلاق تأويلاتها، من قبيل الحدود بين المعيار والأسلوب، كون الأول يحيل على قانون كلي جمعي استهلكت أنظمة فصارت إلى اللغة العادية، وكون الثاني يتميز بالفرادة والغرابة. ثم تعاليها وعدم صلاحية أدواتها للتطبيق على النصوص التي لا تستجيب لظواهر الخرق والانزياح المختلفة، ما يجعلها انتقائية وقاصرة عن أن تكون نظرية عامة في تحليل الخطاب.

2. بين المعيارية والوصفية

ننطلق من المسلمة التالية، وتنطلق من استحالة وضع قاعدة لكل ظاهرة أسلوبية، ومحاولة جمع الظواهر في وجودها الحر الحيوي هو خنق لهذه الظواهر، ودفع لتردي الإنشاء والاستقبال معا؛ لأن معيار الجمال سيصبح واحدا على مستوى إنشاء الظاهرة، وعلى مستوى تلقيها وفق معيارية تحدد الأحكام التأثيرية"[14]. لنؤكد أن البلاغة والأسلوبية والشعرية باعتبارها مجالات معرفية تتعامل مع الكلام، وأي كلام؟ إنه الكلام الأدبي الذي يحتفل بالخرق والتجاوز الدائم للسكونية اللغة والثبات الأسلوبي، ومن طبيعة الكلام والأدبي خاصة أنه ممارسة وأداء فعلي يتميز بالخصوصية والتفرد كونه ينطبع بسمات

المتكلم المنتج، ومن شأن هذه السمات التفردية، والخصائص المائزة انفلاتها عن الانضباط والتقنين.

إن هذه العلوم ليست علما، ولا يمكن أن تكونه، ليس لأنه لا يمكن أن تكون لها قواعد نظرية ومنهجية؛ ولكن لأن ظواهرها ليست مطردة، ولا يمكن أن تكون مطردة، فهي قائمة على التجاوز والمغايرة واستهداف التفرد والخصوصية، ومن كان موضوعه بهذه الشاكلة فهو أبعد ما يكون عن المنهج العلمي الصارم، والقائم على الاستقراء التام، أو على الأقل الناقص الذي يقيس بعض الظواهر على بعض ويجعل القواعد المستنبطة من تلك تنصرف على الباقي.

تبنت البلاغة العربية والغربية في فترات من تطورها سمة المعيارية والعلمنة، لكن ذلك أحالهما قوانين جافة، تحد حرية المبدع المنتج كما تخنق تأويلات المتلقي الجمهور، لذلك كانت المعيارية وجها من أوجه القصور التي سيطرت على الرؤية البلاغية القديمة، العربية والغربية، بيد أن وجودها تختلف بين السياقين؛ فالبلاغة الغربية تصدر عن تصور معياري في القواعد التأسيسية لكيفية القول، أما معيارية البلاغة العربية فتمثلت في الأحكام الصارمة على الظواهر بالصواب والخطأ. "ومنشأ الخلل في الدرس البلاغي هو ثبات (استاتيكية) القاعدة وحيوية (دينامية) الظاهرة وحركيتها"[15] وتعني المعيارية في أبسط تحديداتها تمثل سلطة القاعدة، وهنا اصطدامها بالأداء الفني. والفرق بين المعيارية والوصفية هو الفرق بين بين التقعيد والتتبع.

إن الظواهر البلاغية ليست مطردة، ولا يمكن أن يتحقق لها الديمومة إن اطردت؛ ففي اطرادها فناؤها، نعم صحيح أنه يمكن أن تجمعها بعض الملامح المشتركة؛ ولكنها لا تفيد إلا في الرصد والتصنيف والتوصيف، أما التحليل فكل ظاهرة هي وجود قائم بذاته، له ملامحه الخاصة، كالأصابع للإنسان لها سمت واحد ولا تتطابق بصماتها.

يختلف وجود الظواهر البلاغية في الخطاب الشعري عن وجودها في الخطاب الحجاجي والخطاب التعليمي، ومن ثم تضع هذه المحاولة في حسابها هذه المغايرة في أنواع الخطاب بهدف استنباط الرؤية البلاغية من استقراء الظاهرة نفسها، وذلك في ضوء الأبعاد السياقية والعناصر التداولية التي تمثل أحد أهم أركان خصوصية الخطاب. ولهذا

يستعصي الخطاب البلاغي عن العلمنة، فمن العسير علمنة قولا شديد الخصوصية والتفرد، بل إن مشروعية وجوده تكمن في تجاوزه الدائم للمستقر، فالقول البليغ دائما ينشد التميز وينزع إلى الإغراب ويهدف إلى التفرد، وهذا يوجه البحث البلاغي إلى إدراك العناصر المشتركة، وإدراك مواز لعناصر التفرد، وإدراك الكيفية التي تحقق التفرد والتميز والخصوصية والإغراب في ظل أسر العناصر المشتركة.

إن القول بالمنهجية في هذه المجالات المعرفية أنسب وأجدى من القول بالمنهج المعد سلفا، والقول بالتصورات النظرية أنسب من القول بالعلمنة والنظريات المعدة سلفا، فنسبة المنهجية والتصورات المنهجية في مواجهة صرامة العلمية والنظرية، ومرونة المنهج ونسبية الأطر الضابطة من الأدوات والإجراءات أنسب من التقنين الصارم"[16]، ويكمن بقاء الرؤية المنهجية في مرونتها، ومرونتها تكمن في طواعيتها لاستيعاب تغيرات الرؤى النظرية، ولاستيعاب طفرات الإبداع المتجاوزة للحدود المرسومة.

وإذا الوصفية تعني تتبع الظواهر التي من شأنها أن تحدث أثرا، وهذا الأثر منفتح على ما لا يحصى من النشاط التواصلي الإنساني فإنه الأنسب، وقد تنبه السكاكي قديما لهذا العنصر فقال بأن وظيفة البلاغة هي "تتبع خواص تراكيب البلغاء"، وهذا الذي قصرت عنه البلاغة بمعياريتها استدركته الأسلوبية؛ إذ استعارت من اللسانيات المنهج الوصفي الدقيق فصارت إلى تتبع الانزياح والخرق اللغوي الأسلوبي في النصوص بمستوياته المختلفة، وحاولت تأويل وتفسير كل تعبير بربطه بسياقه من النص، منطلقة من مبدإ أن النصوص لا تكرر نفسه أبدا، وما قيل عن القصد التعبيري في نص لا يقال عن ذات القصد في النص، لأن في كل تشابه اختلاف مكنون يحتاج إلى الكشف، بمعنى النظر إلى الملامح الأسلوبية لنص أدبي ما على أنه وحدة كاملة، وعدم إدراك الأسلوب بوصفه شيئا ينتمي كلية إلى الأدب. ولكي تثبت الأسلوبية فعاليتها التأويلية استعانت بنتائج البلاغة القديمة ذاتها، كما انفتحت على حقول معرفية مختلفة فاستفادت من اللسانيات والسيميائيات وغيرها.

أما الشعرية فبسعيها إلى استخلاص القوانين الأدبين انطلاقا من التعامل الداخلي مع النصوص، تمهيدا لتأسيس قوانين للأعمال المتصورة لا المحققة، لا تستطيع هي الأخرى أن

تكون علما معياريا تفرض قوانينه على الإبداع، لكون مادة موضوعه لا تستجيب لهذه الخاصية. صحيح أن هدفها يتجلي في السعي إلى استخلاص قوانين الأعمال الأدبية، لكنها لا تلزم المبدعين بهذه القوانين، وإنما تتخذها معبرا ووسيلة لمزيد كشف طرائق اشتغال الأدب وكيفية إنتاجه.

3. **ظروف التكون والتبلور في السياقين العربي والغربي**

إن الذي دفعنا إلى تخصيص هذا المحور لهاته المفاهيم الثلاثة أننا نجد في الأدبيات العربية الغربية على حد سواء الحديث عن البلاغة والأسلوبيات والشعرية، ما يبعث على السؤال التالي: ما السياق الذي نبتت فيه هذه النظريات المعرفية؟ وهل نحن فعلا أمام تواز تشابهي في سياق النشأة والتبلور؟ أم نحن أمام نشأة وصدى مرتجع؟

إن أقدم شكل خطابي عرفته الإنسانية ويتخذ الوحدة الكبرى من الجملة- أقصد النص- موضوعا لدرسه هو البلاغة، لكن سياق بروزها في الفضاءين العربي والغربي مختلف، ومنه اختلف اتجاهها وتوجهها. كانت البلاغة الغربية ذات طابع إقناعي غايتها تعرف التقنيات الخطابية وتمريرها لأبناء الساسة لتمكن لهم مزيدا من السيطرة؛ وهي وإن ارتبطت ابتداء بالمرافعات في الساحات العمومية والجمعية العامة إلا أنها سرعان من تحولت إلى وسيلة ابسط النفوذ والحفاظ على السلطة أو تبريرها. وانطلاقا من وظيفته هاته لم يختلف أرسطو وأفلاطون في تعريفها، ولكن الاختلاف بينهم ظهر في العلاقة المعقدة بين اللغة والبلاغة، كون أفلاطون يرى أنها مضللة وتجلب منفعة شخصية وهو ما يناقض الحقيقة التي تسعى لها اللغة باعتبارها تؤسس لعالم مثالي، لذلك كانت حملته شديدة على السوفسطائيين كونهم معلمي بلاغة، ناسيا أن الوظيفة البلاغية لا تمتد إلى التأثير في الأنشطة الخاصة بالحياة الفعلية، وأنه في الأدب مسموح أن نشوه الحقيقة لأن الأدب بعيد عن النصوص التي لها تأثير فعلي على الظروف الواقعية للقراء.

وفي فترات من تاريخ الغرب القديم والحديث تهددت البلاغة بالانفصال عن الحياة، وتحولت إلى درس جاف لا حياة فيه، وانفصلت بذلك عن الحياة الاجتماعية للأفراد، ما جعل البعض يعلن موتها صراحة. ومع نهايات النصف الثاني من القران الماضي بعثت فيها الروح مرة أخرى، وتم الزج بها في معترك الحياة والمجتمع. فغدت أداة ضرورية في التواصل

والحوار، ووسيلة ناجعة في فهم وتأويل مختلف الخطابات التي تفرزها الحياة الاجتماعية، فتميزت عن القديمة في النظرة للخطابات كما تميزت وظيفتها وأهدافها، فتم تمييزها بالاسم فأطلق عليها "البلاغة الجديدة"، دون ادعاء التجاوز لبلاغة أرسطو؛ بل اعتبار هذا التجديد جهدا مضافا مكملا متمما.

أما في السياق العربي فالبلاغة خرجت من رحم الإعجاز القرآني، فكانت وظيفتها تحديد إعجازية القرآن، وبما أن النص الشعري نص رفيع يشابه النص القرآني في بعض مناحيه نقلت تلك الشذرات البلاغية إليه فنشأت بلاغة متكاملة، شعرية تخييلية إمتاعية بالدرجة الأولى، وبما أن المنطلق كان القرآن الكريم والشعر الجاهلي وهما شواهد فريدة ونوعية استقيت من تتبع خوصاهما قوانين صارت مع الزمن قواعد لا زمة توجه الإبداع والتلقي معا، ورغم أن تاريخ البلاغة العربية قد شهد خطابات خطابية من قبيل خطابة ابن وهب الجاحظ فقد أقبرتا لصالح البلاغة الشعرية. ولم ترتفع الأصوات المنادية بضرورة تجديد البلاغة إلا مع الدعوة إلى تجديد العربية عموما؛ نحوها وصرفها وبلاغتها، ثم ظهرت دعوات أخرى نادت هي الأخرى بالتجديد سيرا وراء ركب البلاغة الغربية، فتمت الدعوة إلى قراءة البلاغة العربية وإعادة بنائها من منطلق تداولي ينفتح على مباحث الدرس الحجاج.

كان البلاغيون القدماء ينظرون إلى البلاغة على أنها فن للإقناع؛ ولكن الإقناع لم يكن بالضرورة أداة خادعة؛ ولكنها بالأخرى، كانت صيغة اجتماعية للإقناع الذي لا يتعامل مع المبادئ الصارمة. والذي كان يشغل أفلاطون حقيقة أن البلاغة أداة بدون موضوع أخلاقي، أو جمالي.

استقرت البلاغة في تصنيف المعارف غير القابلة للانضباط المبني على الاستقراء الناقص، وليستقر الدرس البلاغي في المعارف التي تقوم على الاستقراء التام، والاستقراء التام هنا يعني تتبع الظواهر. وإذا كان الأمر كذلك فإن للأسلوبية الحديثة أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة؛ ذلك أن الأخيرة وقفت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتصنيفها، وتجمدت عند هذه الخطوة"[17]. إن أسلوبية التعبير-كما صممها بالي- قد نشأت عن البلاغة القديمة؛ ولكن بطرق جديدة؛ ولذا فإن دراسة البلاغة للصور ما تزال راهنة لم تتجاوزها دراسة أخرى حتى يومنا هذا"[18]، والسؤال الأكبر الذي اهتمت به

الأسلوبية أكثر من البلاغة: كيف نحكم الاختلافات بين الخطاب الأدبي وغير الأدبي. فكان جواب الشكلانيين باعتبارهم الورثة لأنظمة البلاغة، في اعتقادهم صلاحية معطياتها للتمييز بين الأدب والأنواع الأخرى من الخطاب اللغوي.

إن الأسلوبية قد نشأت بفعل تحويل الدراسات اللسانية من اللغة إلى الكلام؛ فإذا كان سوسير قد قصر درسه اللساني على اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية وأنظمة قابلة للوصف الآني، فقد أدرك خطورة تحويل الدراسة إلى الأدب باعتباره لغة في سياق تكلمي أدائي يتلون بحيثيات مختلفة؛ لكن بمجيء تلامذته المباشرين وغير المباشرين من قبيل شارل بالي وليو شبيتزر نقلوا الدرس اللساني إلى الكلام/ الخطاب الأدبي فبرزت اتجاهات مختلفة في الأسلوبية من تعبيرية ولسانية وهي ثمرة العلاقة الديناميكية بين اللسانيات والأدب، لأن منطلق الأديب واللساني هو اللغة، وعلاقة اللغة بالأدب خلقت مستويات أسلوبية يمكن للأديب الاختيار منها ما يناسب توجهه للتغلب على محدودية اللغة، وللأدب لغة تختلف عن لغة الاستعمال اليومي، لغة الأدب مختارة ومعدلة، ومن مهمات الأسلوبيات كشف السمات الأسلوبية للأدب، ثم رصدها لمعرفة كمية التأثير والتأثر ونوعيته عند المتلقي.

ثم الأسلوبية الشكلانية رائدها "إيريك أنكفيست" الذي اعتمد على أدوات الشكلانية، وارتبطت بالعملية الإيصالية والتواصلية، أي كل ما يتعلق بردود الفعل التي يبديها المرسل والمرسل إليه تجاه الخطاب المنطوق أو المكتوب هي ما يشكل "الأسلوب". والذي يشحذ ردود الفعل من المرسل إلى الخطاب ثم إلى المتلقي هي "نسبية السياق" كما يسميها أنكفيست، أي مجموع السمات السياقية التي تحيط بالنص لتمنحه "أسلوبا ذا وظيفة"، وهو ما يعني أن "الأسلوب" مصطلح نظري وهمي أكثر منه نقدي، لأنه يعرف بوساطة مفاهيم أدبية وثقافية وسلوكية تتشكل كردود أفعال يسهم في بنائها المرسل والمتلقي والخطاب. ومن المفاهيم اللسانية الشكلانية التي تستثمرها الأسلوبيات ثنائية اللغة والكلام عند سوسير، والتقسيم الذي اقترحه تشومسكي "المقدرة اللغوية" و"الأداء اللغوي" ومفهوم "العدول" أو الانحرافات اللغوية، ومفهوم الجملة وطريقة انخراطها في بنية النص...

إن استفادة الأسلوبيات من اللسانيات الشكلية تمثلت في استثمار ثنائية "تشومسكي": "القواعدية" و"القبولية"، ويقترح أنكفيست صيغة توافقية لهاتين الفرضيتين عن طريق "الانتقاء" في فرضية القواعدية وترك القبولية، ذلك أن هناك بعض القواعد اللغوية التي يمكنها أن تترك للكاتب حرية الاختيار الذي يقابل في وظيفته فرضية "القبولية"، مثل استخدام الفعل قبل الفاعل في الشعر في قصيدة الشاعر "ولت وايتمان" في قصيدة "الشاطئ أثناء الليل"، وهناك من أطلق على مفهوم الانتقاء "العدول" عن القواعدية، كما استعملت الأسلوبية هذين المنهجين لمعرفة قيمة الكلمات والجمل والمعاني حسب سياقاتها التاريخية والمعاصرة.

ثم الأسلوبية الإحصائية يعنى هذا الاتجاه اللساني باستخدام الإحصاء والرياضيات كمقاييس علمية لقياس الأساليب، والأسلوبيات باستفادتها من هذه المقاييس تستطيع كشف أن حقيقة الاختلافات الأسلوبية سواء أكانت في الشكل أو المضمون تعود إلى مسألة "الانتقاء".

أما الشعرية فلها سياق خاص، بدأ مع الشكلانية الروس باعتبارهم نقادا ولغويين يرفضون الدراسة الأيديلوجية للأدب، مركزين على ما يشكل حقيقته، وهو لغته وسماته الداخلية، وقد تطورت نظرتهم هذه بفعل التقارب المنهجي بين حقلي الدراسات الأدبية واللغوية، وسرعان ما تطورت نظريتهم لتعم الشعر والسرود خاصة، وإذا كانوا يستعملون الأدبية بدل الشعرية فإنه بمجرد أن تلقف الفرنسيون نظريتهم وطوروها صار مفهوم الشعرية مترددا في الدراسات النقدية.

خاتمة:

إن هذه المفاهيم، إذن، تنطلق من الكلام مخالفة بذلك المباحث اللسانية التي ترتكز على النظام اللغوي أو الكفاءة اللغوية، لكن في انطلاقها من الكلام اختلفت في أشكاله؛ إذ ركزت الأسلوبية على نوع خاص منه يقف بالضد والخلف مع اللغة المعيارية، باعتماد مفاهيم الانزياح والانحراف والمسافة الجمالية والقارئ المحترف، بغية تفسير هذه الانحرافات، في حين انطلقت الشعرية من ذات المادة وسعت إلى استخلاص قوانينها

المجردة، بغاية تعرف الكفاية الأدبية.. بينما وسعت البلاغة موضوعها لينصرف على جميع النصوص؛ لأن مجالها التواصل الإنساني في السياقات المختلفة.

إن المباحث التي تحيل عليها هذه المفاهيم قائمة على التطوير والتجاوز، إذ كلما قصر مبحث عن درك مميزات الكلام الأدبي من خلال عناصره إلا وبرز للواجهة أحدها، بدءا بالبلاغة؛ العلم القديم المهتم بالخطابات الإنسانية إنتاجا وتلقيا، لتتطور إلى بلاغة صورية قبل أن تصير إلى جمود هو ما بعث إلى نشأة علم جديد يعني بالأساليب مترصدا انزياحات وانحرافات اللغة الفنية عن المعيارية، لكن قصوره على التصنيف والتمييز، طرح مسألة الشعرية سياقيا، وهي الساعية إلى إدراك قوانين الأدب؛ أي الأدبية، لتعود مرة أخرى البلاغة بوسم الجدة، ولتفتح آفاق الدراسة مرة أخرى على الخطابات الإنسانية سعيا إلى تحقيق معرفة شاملة بها.

الهوامش:

[1] نقلا عن: محمد البقالي، "من بلاغة الوجوه إلى بلاغة الخطابات" مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017، ص: 596.

[2] أمين الخولي، فن القول، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1996، ص: 18

3عيد بلبع، " البلاغة الجديدة وسؤال المنهج"، مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017، ص: 211

[4] Todorov. La poétique, seuil, paris ; p26.

[5] g. genette: figuee 1, seuil, 1966, p261

[6] معارضة الغريب- كمال داوود، تر: ماريا الدويهي، وجان هشام، دار البرزخ 2015، ص: 80

[7] t.todorov, ducrot: dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, paris edition; seuit, p 106)

8todorov. La poétique, seuil, paris ; p27.

[9] تيزفطان تودروف، الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، ط2، 1990، ص: 16- 27.

[10] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، ط:1، 1985، ص: 32

[11] الغدامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، كتاب النادي الأدبي الثقافي، السعودية، ط1، ص: 20

[12] محمد القاسمي، الشعرية والنقد الأدبي، 03

[13] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، ط:1، 1985، ص: 114

[14] عيد بلبع، " البلاغة الجديدة وسؤال المنهج"، مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017، ص: 202.

[15] عيد بلبع، " البلاغة الجديدة وسؤال المنهج"، مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017، ص: 203.

[16] عيد بلبع، " البلاغة الجديدة وسؤال المنهج"، مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017، ص: 203.

[17] محمد عبد الطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر 1994، ص: 259.

[18] الأسلوبية والأسلوب، بيير جيرو، تر: منذر عياشي، عويدات للنشر والطباعة، بيروت ص: 17

المراجع والمصادر:

- أمين الخولي، **فن القول**، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1996.
- بيير جيرو، **الأسلوبية والأسلوب**، تر: منذر عياشي، عويدات للنشر والطباعة، بيروت.
- تيزفطان تودروف، **الشعرية**، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، ط2، 1990،
- سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، ط:1، 1985.

– كمال داوود، **معارضة الغريب**، تر: ماريا الدويهي، وجان هشام، دار البرزخ 2015.

– عبد الله الغدامي، **الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية**، كتاب النادي الأدبي الثقافي، السعودية، ط1.

– عيد بلبع، " **البلاغة الجديدة وسؤال المنهج**"، مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017.

– مُحَمَّد البقالي، "**من بلاغة الوجوه إلى بلاغة الخطابات**" مجلة فصول، المجلد (26/1)، العدد 101، خريف 2017.

– مُحَمَّد عبد الطلب، **البلاغة والأسلوبية**، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر 1994.

g. genette: figuee 1, seuil, 1966.

t.todorov, ducrot: dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, paris edition; seuit, 1979.

t. todorov. La poétique, seuil, paris, 1971.